

عقريات العقاد الإسلامية في عيون الناقدين

د. جابر قمبيحة



العقاد

عاش عباس محمود العقاد قرابة ثلاثة أرباع قرن (٢٨ يونيو ١٨٨٩ - ١٣ مارس ١٩٦٤م) غذى المكتبة العربية خلالها بما يزيد على مائة كتاب، زيادة على آلاف من المقالات والبحوث نشرت في الصحف والمجلات.

ويعد العقاد نموذجاً نادراً «للعصامية العلمية» في العصر الحديث. فهو لم يحُصل في حياته إلا على الشهادة الابتدائية، ولكنه استطاع أن يقرأ بنهم شديد، ويحصل «بالتثقيف الذاتي»، ما لم يحصله أصحاب أرقى الشهادات وأعلىها، فلا عجب أن يغزّر عطاؤه، وأن يتعدد إنتاجه ويتنوع، فيضرب بقلمه في شتى المجالات والموضوعات: من أدبية وسياسية واجتماعية وتاريخية وفلسفية.

وجاءت كتبه في التراجم والسير قرابة أربعين كتاباً، من أشهرها ما كتبه عن الأنبياء وعظماء الإسلام، وجاءت بترتيبها التاريخي على النحو التالي:

تجري مجرى المجاملة التي تقتضيها الأعراف، وليست كذلك من قبيل «عبادة الأبطال»، ولا من قبيل «التزويق الفني» «فتجميل الصورة شيء، وتوقير صاحبها شيء آخر، فإنك لو صورت أبا بكر فرفعت صورته مكاناً علياً لم تكن قد أضفت إليه جمالاً غير جماله، أو غير ملامحه النفسية بحيث تخفى على من يعرفها، فهذا هو التوقير الذي لا يخل بالصورة، ولا يعاب على المصور، وليس هو بالتجميل المصطنع الذي يضل الناظر عن الحقيقة» (٤).

وانطلاقاً من هذا التوقير يفسر العقاد كل الهنات العارضة التي علفت بمعجم العظماء؛ لأن:

من ركب الهائل من أمّره فعذره في ذلك المركّب كما تصدى العقاد لمفتريات أعداء الإسلام، والشبهات التي أثاروها، وأخذ يفندوها بعارضة قوية وحجة نافذة.

أما «مفتاح الشخصية» فاصطلاح عقادي، لم يستخدمه أحد قبل العقاد - فيما أعلم - وعاش مغرباً باستخدامه حتى في دراساته المقالية أو الفصلية عن الشخصيات (٥). ومفتاح الشخصية ليس بوصف لها، ولا بتمثيل لخصائصها

عمر» . . . ليس بسيرة لعمر، ولا بتاريخ لعصره على نمط التواريخ التي تقصد بها الحوادث والأبناء، ولكنه وصف له، ودراسة لأطواره، ودلالة على خصائص عظمته، واستفادة من هذه الخصائص لعلم النفس وعلم الأخلاق، وحقائق الحياة» (٢).

وفي سبيل ذلك نجد العقاد يخالف «المنهج السردى» في كتابة التراجم من ناحيتين:

الأولى: الناحية الترتيبية: فهو لا يلتزم ترتيب وقائع الحياة من المهد إلى اللحد، بل يقدم ويؤخر فيها تبعاً لمقتضيات منهجه الذي اشتهر «بالمناهج النفسية».

والثانية: الناحية التقديرية أو التقييمية: فقيمة «الحدث» في نظره لا ترتبط بضخماته وتوجهه وامتداده الزمني والمكاني، بل بقدر ما يعكسه من دلالات وقيم وأبعاد إنسانية ونفسية (٣).

ولعل من أهم ما يشد النظر في عقريات العقاد أمران:

الأول: توقير الشخصيات. والثاني ما سماه العقاد بمفتاح الشخصية: فتوقير العظماء من أمثال أبي بكر وعمر وخالد لازمة من لوازم العقريات كلها يحرص العقاد عليها، وهي لا

- ١ - عقبرية محمد (١٩٤٢) ٢ - عقبرية عمر (١٩٤٢) ٣ - الصديقة بنت الصديق (١٩٤٣) ٤ - عمرو بن العاص (١٩٤٤) ٥ - أبو الشهداء: الحسين بن علي (١٩٤٥) ٦ - داعي السماء: بلال بن رباح (١٩٤٥) ٧ - عقبرية خالد (١٩٤٥) ٨ - الشيخ الرئيس ابن سينا (١٩٤٦) ٩ - عقبرية الإمام (١٩٤٩) ١٠ - عقبرية الصديق (١٩٥١) ١١ - القائد الأعظم محمد علي جناح (١٩٥٢) ١٢ - عقبرية المسيح (١٩٥٣) ١٣ - فاطمة الزهراء والفاطميون (١٩٥٣) ١٤ - ابن رشد (١٩٥٣) ١٥ - أبو الأنبياء الخليل إبراهيم (١٩٥٣) ١٦ - ذو النورين: عثمان بن عفان (١٩٥٤) ١٧ - معاوية ابن أبي سفيان في الميزان (١٩٥٦) ١٨ - الرحالة لك: عبد الرحمن الكواكبي (١٩٥٩) ١٩ - الشيخ محمد عبده (١٩٦٣).

وفي هذه التراجم - وخصوصاً «العقريات الإسلامية» لا يعطينا العقاد «سيرة الرجل العظيم» إنما يعطينا «صورته الإنسانية» بكل ملامحها وسماتها، وهو يصدر عقرياته دائماً بقوله إنها ليست تاريخاً لمن يطلبون التراجم والتاريخ. فيقول في مقدمة «عقبرية الصديق» «إنني لا أكتب ترجمة للصديق - رضي الله عنه - ولا أكتب تاريخاً لخلافته وأحداث عصره» (١). وكتابه في «عقبرية

ومزاياها، ولكنه أداة تنفذ بك إلى دخالها ولا تزيد» (٦).

— فمفتاح شخصية أبي بكر هو «الإعجاب بالبطولة» (٧).

— ومفتاح شخصية عمر هو «طبيعة الجندي» (في أخلاقه الوازنة الحاكمة) (٨).

— ومفتاح شخصية خالد هو طبيعة الجندي (في أخلاقه الدافعة الهاجمة) (٩).

— ومفتاح شخصية علي هو «آداب الفروسية» (١٠).

والعقاد بثقافته الموسوعية يوظف علوم العصر وثقافته القانونية والنفسية والاجتماعية والقواعد والمعارف العسكرية والأدلة العقلية والمنطقية في عرض مختلف القضايا ومناقشتها، وربط الأسباب بالمسببات، واستخلاص الأحكام والخلوص إلى النتائج التي يراها حاسمة؛ لأنها تعينه على تحديد ملامح الصورة وتشخيصها.

والتزاماً بموضوع هذا المقال وعنوانه نكتفي بهذه الخلاصة المركزة لأهم خطوط «المنهج النفسي» الذي أخذ العقاد نفسه به في هذه التراجم (١١). لتقف وقفة متأنية مع آراء الآخرين في هذه التراجم، ثم نعرض رأينا فيما كتب وفيما كتبوا...

لقد تعرض العقاد للنقد الكثير فيما كتبه من تراجم، وخصوصاً ما كتبه عن عظماء الإسلام. وباستعراض هذا النقد يمكن تصنيفه في ثلاثة أنواع:

١ - نقد الدوافع

٢ - نقد المنهج والطريقة - وهو ما

يمكن أن نسميه بالنقد الخارجي أو الشكلي.

٣ - نقد المضامين والأفكار والقضايا والأخبار والروايات، وهو ما يمكن أن نطلق عليه النقد الداخلي أو الموضوعي.

أولاً : نقد الدوافع

يرى الكاتب رجاء النقاش أن العقاد لم يلجأ إلى الكتابات الدينية بعمامة، والعبقريات الإسلامية بخاصة إلا لدوافع وبواعث سياسية نفعية؛ إذ أن العقاد بعد أن استقال من حزب الوفد - وهو حزب الأغلبية - أحس أنه خسر جماهيرياً، فوجد أن الدين هو البديل الذي يوصله إلى قلوب الجماهير، فكتب العبقريات... فارتدت إليه بصورة مضاعفة - عندما دخل حظيرة الإسلام والكتابات الدينية - مكانة لدى الجماهير فاقت مكانته الأولى أيام كان كاتب الشعب الأول في

مرحلة ثورة ١٩١٩ الوطنية» (١٢).

وهو لتعليل غير صحيح - في نظرنا - لعدة أسباب أهمها:

١ - أن شخصية العقاد عاشت على الفردية والاستعلاء، ولم يكن يهتم بالجماهير ولا بالمكاسب الشعبية، فهو أكثر كتابنا استمعالاً لبعض الكلمات الحادة للدلالة على الجماهير ونفسيتهام مثل: «الدهماء» و«الغوغائية الخ...» (١٣).

٢ - في سنة ١٩٤٠ تحدى العقاد مشاعر الجماهير المصرية بإصدار كتابه «هتلر في الميزان»، وفيه يهاجم هتلر هجوماً صارياً، في وقت كانت المشاعر المصرية والعربية تتعاطف فيه مع ألمانيا وهتلر.

٣ - بدأ العقاد كتاباته الدينية الجادة بكتابه (النازية والأديان) سنة ١٩٤٠م - أي قبل استقالته من الوفد - لا بالعبقریات الإسلامية التي صدر منها كتابان سنة ١٩٤٢م.

٩٩

هل أسرف العقاد في الدفاع

عن شخصياته بصورة أخرجته

عن الموضوعية !!؟

٦٦

٤ - كانت كتابات العقاد في شتى العلوم والفنون - ومنها العبقريات - كتابات للخاصة، ولم تكن كتابات على المستوى الجماهيري الشعبي، وذلك لطابعها العلمي التحليلي العميق.

٥ - كانت الكتابات الدينية في ذلك الوقت - وبخاصة عن عظماء الإسلام - تمثل تياراً دافقاً أسهم فيه الدكتور محمد حسين هيكل بكتبه عن حياة محمد وحياة أبي بكر وحياة عمر - وهو رأس من رؤوس حزب الأحرار الدستوريين، وساهم فيه طه حسين - الوفدي - بكتابه (على هامش السيرة) وتوفيق الحكيم - اللاهزي - بكتابه (محمد) (١٤).

٦ - والعقاد - بعد إصدار عبقرياته لم يحز أي كسب جماهيري سياسي، ولو على مستوى التمثيل الشعبي؛ لأن «الشعبية الجماهيرية» كانت مرتبطة أساساً بعضوية حزب الوفد، لا بالعطاء الفكري العظيم الذي قدمه في العبقريات. ولكننا لا نستطيع أن ننكر أن هذا «الاعتزال

الفكري كان عاملاً مساعداً مهماً - لا في كتابة العقاد عبقرياته فحسب، ولكن في غزارة إنتاجه الذي تعددت ألوانه وأنواعه من تراجم وأدب ونقد وشعر وفلسفة وسياسة.

ثانياً : نقد المنهج

وينتقد سيد قطب - رحمه الله - طريقة العقاد، ويكشف ما تطوى عليه من أخطار ومزالق؛ فهي ليست مأمونة في يد كل كاتب؛ لأن الغلظة الصغيرة فيها تذهب بالصورة كلها، فهي غلظة في سمة إنسانية لا في حادثة جزئية. وحتى في يد العقاد لا تخلو من نقص؛ لأن الشخصية الإنسانية ليست وحدة ثابتة في جميع الظروف والأحوال، فلاكتفاء بالسمات البارزة، والخصائص الكبيرة والحوادث المختارة لا يكفل تصوير الشخصية من كل جوانبها، وفي جميع ملامحها، ولا يضمن لنا صورة من الحياة المتسلسلة للبطل - كما عاشها أول مرة، أي لا يضمن لنا سمة القصة، وهي سمة ضرورية في ترجمة الشخصية» (١٥).

وهو نقد شديد إلى حد بعيد. فأقل غلظة في المادة أو الاستنتاج يشوه ملامح الصورة كلها؛ لأنه لا يمكن عزل الجزء أو العنصر العاطف. فالغلط في «المادة» أو «الاستنتاج» في هذا المنهج - وإن بدا جزئياً - يشبه إلى حد كبير ارتعاشة يد المصور بآلة التصوير (الكاميرا) إذ ينتج عن ذلك صورة مهزوزة تائهة الملامح كأنها ليس بينها وبين صاحبها أدنى صلة.

والعقاد في العبقريات وغيرها من التراجم كان يعتمد أحياناً على كلمة عابرة تصدر من الشخصية أو على حدث واحد صغير ويستخلص منه سمة من سماتها وأحياناً سمات ودلالات متعددة. فلو فرضنا أن هذا الحدث موضوع، لا مكان له على مسرح الواقع لأنهار كل ما رتب عليه العقاد من سمات ودلالات، وأساء ذلك إلى «صورة الشخصية»؛ لأنها لا تقبل التفتت والتحيز. بعكس الحال في المنهج السردى التقليدي؛ فالخبر العاطف والرواية المشكوك فيها يمكن عزلها وإسقاطها، ويبقى من تاريخ الشخصية، ووفان حياتها ما يطمأن إليه على سبيل اليقين.

قيادات رشيدة:

وفي نطاق المنهج أيضاً نقرأ أعمد نقد أو اتهام وجهه إلى العبقريات أو تعميم أدق - أي العقاد

نفسه، وخلاصته أنه لم يكتب هذه العبقريات إلا ليحارب بها تيار المد الإسلامي، ويؤكد صحة أفكاره في أولية الفرد في التاريخ وأحقته كمحرك له، ويلطعن في جدوى تنظيمات المد الإسلامي الجماعية في العصر الحديث، ويشوه إيمانهم بهذا الجانب في الإسلام ويشكك في دور العقائد والتربية في توجيه الأشخاص (١٦).

وهو اتهام ظاهر الوهن؛ لأنه حكم على «نية» خافية لا يعلمها إلا الله، ولم يقدم الكاتب دليلاً على صحة اتهامه. على أننا إذا استقرأنا التاريخ وجدنا أن «الجماعة العظيمة» ما وجدت إلا بوجود «العسكري المحرك العظيم». وهل انتصرت الأمة الإسلامية إلا بفضل القيادات الرشيدة من أمثال أبي بكر وعمر وخالد. وعصور الحصار المد الإسلامي كان من الممكن أن تمتد وتستمر لولا أن قيض الله للأمة «أفراداً عظاماً» من أمثال صلاح الدين وسيف الدين قطز وابن تيمية والعز بن عبد السلام.

ولست أدري بماذا يحكم الكاتب على ما كتبه المستشرقون من مزاعم ومفتريات تصدى العقاد لنقضها في عبقرياته إذا حكمنا على هذه العبقريات بأنها حرب للمد الإسلامي وتشويه لعقيدة المسلم.

ثالثاً: نقد المضامين

يأخذ بعضهم على العقاد التمدل الشديد في الأحكام، وفي التفريق غير المستساغ بين سمات الشخصيات وخصائصها، والتلاعب غير الموفق بالكلمات «فعمر رجل عظيم، والنبى إنسان عظيم، ومعاوية رجل قدير لا عظيم. كل هذا تمحل فارغ يدل على نشاط ذهني، ولكنه نشاط مصطنع، فإن الرجل العظيم لا يكون عظيماً إلا بعنصر الإنسانية فيه. والقدره صورة من صور العظمة، ومن كان كمعاوية في نظر معاصريه أسود من عمر نفسه لا تثبت له القدرة لتفتي عنه العظمة» (١٧).

والواقع أن العقاد كان مولعاً - في سبيل رسم الصورة الإنسانية للشخصية - بالتفريق بين السمات والملايح التي قد تبدو للنظر العاجل متماثلة أو متداخلة، وله في ذلك آيات تشهد له بالقدرة الذهنية والحاسة الفنية الموهقة، ومن ذلك تفريقه بين الطبيعة الجندية الوازعة الحاكمة، والطبيعة الجندية الهاجمة عند كل من عمر وخالد. وتفرقه بين مفتاح الشخصية والصفة الغالبة، وتفرقه بين إعجاب أبي بكر بمحمد

النبى، وإعجاب عمر بالنبي محمد (١٨).

ومن هذا القبيل - في تراجمه الأدبية - تفرقه البارع بين: إمامة الطريقة، وإمامة الصناعة، وتفرقه بين الصدق التاريخي والصدق الخلقي والصدق الفني (١٩).

والعقاد حينما أطلق لفظة «الإنسانية» على محمد، ولفظة «الرجولة» على عمر لم يقصد إلى بيان تعارض أو تناقض بين وصفين إنما قصد إلى إبراز الصفة البارزة في «إنسان» بعثه الله «رحمة مهداة» للبشر، وإنسان كانت القوة والرجولة من أبرز صفاته في مصادمة الرجال والأحداث، فالنبي لا يكون رجلاً عظيماً وكفى، بل لا بد أن يكون إنساناً عظيماً فيه كل خصائص الإنسانية الشاملة (٢٠).

وليس من اللازم أن تكون القدرة صورة من صور العظمة، فقد يكون الإنسان قادراً، ولكنه غير عظيم «وليس من اللازم اللابز أن تقتصر القدرة بالعمل الذي تستطيعه العبقرية لما يتفق

٩٩

وبقيت عبقریات الكاتب

أمام الهجمات الشرسة

ضد الإسلام.

٦٦

أحياناً من وقوف العوائق بينها وبين الإنجاز أو الاتجاه إلى ذلك العمل» (٢١).

ويعترض بعض النقاد (٢٢) على ما يسميه العقاد «بمفتاح الشخصية» لأن المقياس الواحد، أو الصفة الرئيسية الواحدة لا تكفي، وذلك لتغير مواقف الإنسان في كل الأحوال (٢٣).

فشخصية عمر - على سبيل التمثيل - نمت وتطورت، ولم تثبت على حالة واحدة. وطبيعة الجندي فيه - إن فسرت بعض مواقفه - لا يمكن أن تفسر بعضها الآخر مثل عزل خالد في إبان مجده العسكري، فهذا الموقف يحكمه مقياس آخر غير طبيعة الجندي عند عمر مثل إحساس عمر بالعدالة، أو إشعار جماهير المسلمين المحاربين بأن دورها يفوق دور الأفراد مهما كانت قيمتهم وقدرتهم» (٢٤).

وكلام العقاد في «مفتاح الشخصية» - وإن شابه بعض الغموض أحياناً - يفهم منه أنه غير

الصفة - بمفهومها العام - وهو كذلك غير الصفة الرئيسية التي سماها العقاد «الضابط» (٢٥). فمفتاح الشخصية في مفهومه يكاد يقترب من مفهوم «الغريزة» في خفائها وسيطرتها وقدرتها. وذلك لا يتعارض مع نمو الشخصية وتعدد مراحلها وأطوارها، وقد عاشت «الطبيعة العسكرية» في «عمر» الجاهلية، كما بقيت في «عمر» الإسلام. وإن تغيرت مظاهرها والأشكال التي تجسدت فيها إلى ما يمكن أن يكون تسامياً أو إعسلاً Sublimation.

وأعجب كيف غاب عن الأستاذ النقاش أن عزل عمر خالداً كان عملاً من «الأعمال العسكرية»؛ فعمر هو القائد الأعلى يعزل قائداً من قواده. وعمر - القائد الأعلى يتخذ هذا «القرار» دون أن يستشير فيه أحداً شأن الأوامر والقرارات العسكرية «العليا» في وقتنا الحاضر.

استقرأ ناقص :

ونحن نرى أن أبرز ما يمكن أن نأخذه على العقاد «الاستقراء الناقص» فهو يعتمد - كما عرفنا - على قلة من الأخبار والأحداث، ويستنبط منها السمات النفسية التي يرتب منها «الصورة الإنسانية» للشخصية.

وهو لا شك مزلق خطير؛ لأن الحدث الواحد لا يمكن أن يدل على ملمح نفسي ثابت أصيل. بل لا بد من تواتر الأحداث وأطوارها حتى يصح الاستنتاج. ويسلم الحكم. ومع هذا الاعتبار الأخير يجب أن يستقيم الباعث الدافع مع العمل الذي تطلب منه الدلالة، لأن بذل المال للفقراء - مثلاً - قد يكون وراءه باعث نفسي غير التقوى وحب الإحسان والرحمة والأريحية.

ويرتبط بهذا المأخذ إسراف العقاد أحياناً في الإخلاص لمنهجته إلى حد الاستسلام الذي يكره العلم والمنطق؛ ففي سبيل «رواء الصورة» أو استكمال ملامحها على تسق معين قد يستعين العقاد ببعض الروايات والأخبار الواهية والمرجوحة إذا كان لها من الدلالات ما «يخدم» الصورة، ويبرز لها رواء أسراً وبريقاً أخاذاً، فهو لكي يثبت لعمر بن الخطاب سبقه الحكومات والدساتير الحاضرة إلى قاعدة «إسقاط التهمة عن المذنب لبطالان التنقيش» يورد قصة عمر وكيف تسور حائط بيت ودخله دون استئذان؛ لأنه سمع صوت رجل وامرأة فإذا أمامهما رق خمر، فلما بهرهما على هذه المعصية حابه الرجل بأنهما عصيا الله

المراجع والتعليقات

- (١) العقاد، عبقرية الصديق ٧ (دار الهلال: القاهرة ١٩٥٥).
- (٢) العقاد، عبقرية عمر ٦ (دار الهلال: القاهرة ١٩٦٨).
- (٣) النظر: عبقرية الصديق ٧ - وشوقي صيف مع العقاد ٨٦ (دار المعارف القاهرة ١٩٦٤).
- (٤) عبقرية الصديق ٨.
- (٥) انظر مثلاً كتابه (رجال عرفتهم) ففي الفصل الذي كتبه عن الشيخ علي يوسف يرى أن مفتاح شخصيته (عبقرية) (دار الهلال: القاهرة ١٩٦٣).
- (٦) عبقرية عمر ٧٤.
- (٧) عبقرية الصديق ٦١.
- (٨) عبقرية عمر ٧٦.
- (٩) عبقرية خالد ٢٤٦ (دار الهلال: القاهرة ٥ ت).
- (١٠) عبقرية الإمام ٢٠ (دار المعارف: القاهرة ١٩٥٣).
- (١١) أخذ العقاد نفسه بهذا المنهج - على منيل التعجب - ولكنه تجد في تراجعه بضمت وأخذه لتقاعده المباح الأخرى كالتاريخي والاجتماعي والانضاعي وغيرها. ومن ثم نجد أن صلاح عبد الصبور قد حاسبه التوفيق حينما ذكر أن العقاد لم يعط اهتماماً للعوامل الاجتماعية والاقتصادية والبيئية والجنسية في صنع العظمى وتكوين علاقته بدعته (مدا) يبقى منهم للتاريخ ٤٣. دار الكتب العربي القاهرة ١٩٦٨).
- وهذا غير صحيح - كما ألمعنا - فالعقد لم يفعل هذه العوامل. وإن كان يصر أن المقاد الأول في صنع العظمى للعوامل والخصائص الذاتية (راجع مثلاً فصل (شئون المجتمع) ١٠٨ - ١٢٣) من كتاب العقاد (دور السورين) عثمان بن عفان: دار الهلال: القاهرة ١٩٥٤) وراجع كذلك النصف الأول من كتابه (بالل - دعي السيرة) (مصلحة الاستقلال: القاهرة ٥ ت).
- (١٢) رجاء النقاش - عبد العقاد بين السنين والسنين ٢٠٩ (ط ١ - بيروت ١٩٧٣).
- (١٣) صلاح عبد الصبور - مرجع سبق ٤١ وراجع كذلك إلى ذلك الحوار الذي أجراه العقاد بين أبي العلاء وتلميذه. وفيه يبرز - بكثرة من سواد الأمة لأن أكاديم لا يعقلون - وعلى النقيض يمدى اعترافه وشوقيه - بصيرة أهل الذكر الذين يعينون (رجعة أبي العلاء ١١٦ ط ٣ بيروت ١٩٦٧).
- (١٤) النظر: أحمد هيك - تطور الأدب الحديث في مصر ٢٨٥ (دار المعارف: القاهرة ١٩٦٨).
- (١٥) سيد قطب - القاد الأدبي - أصوله ومناهجه ١٠٢ (دار الفكر العربي: القاهرة ١٩٤٧).
- (١٦) انظر غباري النوبة الفكر الإسلامي المعاصر ٢٢٧ - ٢٦٦ (ط ١ بيروت ١٩٦٩).
- (١٧) إحسان عباس في السيرة ١٦٤ ط ٢ - القاهرة بيروت).
- (١٨) النظر: عبقرية الصديق ٨١.
- (١٩) مدافع العرب - عمر بن أبي ربيعة ١٥٤ ط ٢ - القاهرة ١٩٦٥).
- (٢٠) النظر: عبقرية عمر ١٩٦.
- (٢١) الس ١٨.
- (٢٢) رجاء النقاش - مرجع سبق.
- (٢٣) الس ٢٢٣.
- (٢٤) الس ٢٢٢.
- (٢٥) النظر: عبقرية عمر ١٥٥.
- (٢٦) الس ١٧٦ - ١٧٧.
- (٢٧) عبقرية عمر ٣١٧.

الضرورات التي لا محيص عنها السلامة الدولية الإسلامية. ونقاط الضعف في هذا الدفاع تتمثل فيما يأتي:

١ - أن خالد عزل وهو في عتفوان وقوة انتصاراته، فلم يكن في حياته ومواقفه ما يوحى بانتهاء هذا الدور.

٢ - أن انتهاء هذا الدور التاريخي مسألة ترتبط بعمر أكثر من ارتباطها بخالد، أو بعبارة أخرى كان عزل خالد «عملية إنهاء عمرية»، ولم تكن «عملية انتهاء خالدية» وقد يؤيد هذا التكييف أن أبا بكر ما كان ليُعزل خالد - لو امتد به الأجل! - لأن وجهة نظره في خالد معروفة. وهو القائل عنه «ما كنت لأشيم (لأعمد) سيفاً سله الله على المشركين».

لقد أجهد العقاد نفسه، وحملها من المشاق في الدفاع عن عمر في هذه المسألة بخاصة - ما كان في غنى عنه؛ لأن حق الحاكم في عزل ولاته وقواده كحقه في اختيارهم لا يحتاج إلى دفاع أو تبرير، وهو حق مقرر معروف في الدساتير الحديثة.

ولا يستطيع أكثر الناس عداً لعمر أن يدعى أنه بهذا العزل أراد تحقيق مصلحة ذاتية، أو ضحى بصالح عام للدولة الإسلامية. وربما أراد عمر بحاسته السياسية القديرة أن يغذي الدولة الإسلامية بدماء جديدة في المواقع التي أخذت بأضواء القادة الباهرين. وقد يكون في بقاء خالد في موقعه - وهو أشهر وأقوى قائد في زمنه - حجب لكثير من الشخصيات الشابة ذات الإمكانيات القيادية القادرة التي ما كانت تستطيع أن تؤدي دورها القيادي في وجود شخصية قيادية باهرة كشخصية خالد بن الوليد.

إنما يكون عمر في حاجة إلى دفاع مستميت حقاً إذا ما أدى عزل خالد إلى هزيمة الدولة وتقهر جيوشها، أو على الأقل - توقف مسيرتها في الزحف والانتصار -، ولكن الواقع التاريخي يقرر أن المسيرة استمرت، وأن سلسلة الانتصارات لم تنقطع في شرق وغرب وشمال وجنوب، ولعل أشهر فتح تم - بعد عزل خالد - هو فتح مصر ومنها انطلق الإسلام إلى النوبة والشمال الأفريقي.

ولكن هذه النقود الموجهة إلى العبقرية الإسلامية يجب ألا تسبنا أن هذا العطاء الذي قدمه العقاد للمكتبة العربية سيطر له قيمته الطبية بمنهجه الجديد، وعمقه الفكري، وتصديده للهجمات الشرسة العاتية التي شنها أعداء الإسلام من المستشرقين والصليبيين على القيم الإسلامية وعظماء الإسلام.

في واحدة أما عمر فقد عصى الله في ثلاث وهي: التجسس، ودخول البيوت من غير أبوابها، وعدم الاستئذان والتسليم على أهلها» فيعنفو عمر عنهما (٢٦).

والقصة ظاهرة الافتعال، ولا تتفق مع ما عرف عن عمر من تلمسه الشبهات لاتقاء إقامة الحدود. وهي بدلتها لا تخدم رواء الصورة العمرية، بل قد تؤدي إلى «عكس المطلوب». فكيف يغيب عن عمر - رضي الله عنه - وهو من الأئمة المجتهدين - ما ذكره به رجل من عامة الناس من آداب اجتماعية فرضها الإسلام وأصبحت مشهورة عند الكافة؟

ومن هذا القبيل ما ذكره العقاد في «عبقرية عمر» من أن «الهيبة» كانت صفة من أبرز الصفات العمرية، وهذا صحيح، فقد كان «مهيباً» في نظر أعدائه. كما كان «مهيباً» في أنظار الرعية، ومما استدلل به العقاد على هذه «السمة» أن عمر كان «يحتجم» ذات يوم ففتح عمر فجأة، فسقط الحجام «مغشياً» عليه. وأن عمر كان يمشي ذات يوم ووراء جماعة من المسلمين، فبداه أن ينظر وراءه فجأة، فلم يبق واحد منهم «إلا وحبل ركبته ساقط» على حد قول العقاد، ولست أدري - لو صح هذان الخبران - كيف استطاع عمر بهؤلاء وأمثالهم أن يدك قواعد امبراطوريتي الفرس والروم، وأن يحقق - بهؤلاء - في عشرين سنين - من الانتصارات والفتوحات، ما لم تحققه الإمبراطورية الرومانية من قبل في ألف عام باعتراف المؤرخين الغربيين.

ولا يستقيم الخبران إلا إذا كان عمر - لا مهيباً - ولكن دموياً جباراً - لا يعرف العدل والرحمة والإنسانية شأن الأكاسرة والقيصرية.

على أن التاريخ يروى لنا صوراً متعددة من صراحة الرعية معه وجراتها على مواجهة بعض آرائه بالاعتراض، فامرأة تحطه فيما يراه بشأن «تحديد» المهوور، وينزل على رأيا، ورجل - من عامة الناس - يعلن - على رؤوس الأشهاد - أنه «لو رأى فيه اعوجاجاً لقومه بالسيف». إلى غير ذلك من الأخبار الصحيحة.

ونأخذ على العقاد أيضاً أنه يلحف ويسرف في الدفاع عن شخصياته بصورة تخرج أحياناً على الخط الموضوعي والعقلاني، مما قد يدفع القارئ إلى الوقوع تحت تأثير ما يسمى في علم النفس «بالإيحاء العكسي».

ومثال ذلك: دفاع العقاد عن عمر حين عزل خالد بن الوليد، وكان من ركائزه الأساسية في هذا الدفاع: أن خالد «انتهى دوره التاريخي» (٢٧). وكان عزل خالد كن ضرورة

موكب الإيمان*

شعر / د. حسن الأهراني

لك في الفؤاد من الوداد ما ليس يكتُمه الفؤاد
وإذا سئلت عن المرا د، فأنت ما عشت المراد
يا نجمة خضراء في ليل التوجس والسهاد
كم تهت بين أزقة الحرف المشاكس دون زاد
حتى اهتديت إليك فاتضح الضلال من الرشاد
وغدوت مضطرم الشغاف، وصار من دمي المداد
وعرفت كيف الحرف يغدو خنجرًا في كف موتور . .
ويغدو وردةً زهراء في حجر العرائس
لك أنت ما تهب المروج من النفائس .
ياجنة يمشي على نفحاتها حسان منتشيا
ونائي العاشق (الرومي) من شوق يئن .
ويجتلي أنوار نعمتها، وينهل من كؤوس جلالها إقبال .
فترف من طرب عصافير الصباح، وينشد الأطفال :
«الهند لنا والصين لنا والعرب لنا والكل لنا
أضحى الإسلام لنا ديننا وجميع الأرض لنا وطننا»
قالوا لنا :

أو هذه همم أم هذه رمم

أخني على أنفاسها القدم؟
فاصدع إذن . .
يا طائر الحرمين حلق (إن وعد الله حق)
والزمان قد استدار
جناحك أبسط عاليًا . . طلع النهار
خل السفوح فحظك القمم
والفاتحان : السيف والقلم
إن الزمان قد استدار
فتجلّ باسم الله، وانهض أيها النّقّ المثار
يا فارس الحرف المجلل بالهدى النبوي، فالكون
انتظار . .
هذا زمانك فاستقم يا حظنا الوردي،
يا بشري تصافح كل ناد
ها موكب الإيمان عاد
من أول الجمرات في مراكش الحمراء
حتى أوسع الخطوات في دكا . .
نحلّ وبث من دار الخلافة صوتك الميمون . .
بالحق المبين على يديك نمث رياحين الجهاد

* أُلقيت في حفل افتتاح المؤتمر الثاني للهيئة العامة لرابطة الأدب الإسلامي العالمية في استانبول سنة ١٤١٠ هـ.

حكاية قرية بشينار (*)

قصة بقلم: حكمت دندار
ترجمة د. محمد عبد اللطيف هريدي

— كانوا يتحدثون لغة الكفار، سمعتمهم، أخي محمد أيضاً سمعتمهم.

في هذه الأثناء جاء محمد داخلاً من باب الفناء وانحسر بينهم.

— كيف كانوا يتحدثون لغة الكفار؟ سأل الشيخ إسماعيل.

— هي لغة الكفار وكفى، نحن لم نفهم شيئاً منها.

— لم نفهمهم، قالها محمد وهو يهز كتفيه.

صدقهم الشيخ إسماعيل، فقد كان في أسفل الوادي في مريزون

مدرسة أمريكية، ومثلاً أن جاءت هذه المدرسة ذهب الهدوء وبدأ

العداء ينفذ بين الشعبين اللذين كانا يعيشان في لغة ومودة وما هذا العداء

إلا بتأثير مدرسي هذه المدرسة، وبدأ نشاط عصابات الأمن في

نواحي (أوتلاقل) و(دركو). وقتلوا الجميع. نساء وأطفالاً وشيوخاً،

لم يفرقوا. وأشعلوا النيران في الأجران وأعدموا الحيوانات. كان

عدد السكان الأتراك كثيراً لدرجة لا تقارن بهذه العصابات، ومع ذلك

ظل هؤلاء على قيد الحياة. فقد كانوا سرعان ما يهربون بعد كل اعتداء.

أما الكفار في هذه المرة فقد أحاطوا بالريوة الواقعة أسفل القرية التي

ظهرت من بطن الوادي. تمتع الشيخ إسماعيل قائلاً:

— واحد، إثنان، ثلاثة، سبعة، ثمانية، تساية أشخاص؟ ثم

استدار إلى قره عمر والحافظ يوسف:

— لا داعي للحوف، إنيهم قلة ذهبوا وأخبروا القرية فوئوا بطوبال

يتسبب في الإضرار بأحد ولا أحد يسعى لضرره قط ولا سيما قره عمر هذا.

دخل قره عمر القرية وسط نباح الكلاب وصياح الديكة. انطلق إلى

باب الدار ففتحه على مصراعيه ثم توجه إلى العريشة حيث كان يجلس

أبوه، ووقف أمامه وصدره يعلو ويهبط مثل الكير وعينه تدحان

شرراً. مسح بكم ثوبه حيات العرق التي رسمت خطوطاً على جبهته

ورفع عينيه إلى والده الذي كان يتطلع إليه في دهشة.

— الكفار قادمون، إنهم هناك في بطن الوادي.

عاد إلى الوراء قليلاً وهو يقول ذلك مشيراً بيده ناحية الوادي. أمن

الممكّن أن يكون الفتى ذو الحادية عشرة من عمره قد تأثر بما يدور في

القرية على ألسنة الناس منذ شهور من كلمات: الهندنة، الأمن،

الاحتلال، اليونان، السلطان، الاستقلال. كانت مثل هذه

الكلمات كافية لكي يفهم أن الكفار أشرار يجب أن يبلغ الكبار بقدمهم

حين يراهم. وضع الشيخ إسماعيل يده على كتف ابنه وسأله وقد ركز

نظره عليه: — من أين عرفت أنهم كفار؟

فأجاب قره عمر بصوت متقطع: — نحن كنا نلعب هناك عند

الفتودا... ثم؟ رأيناهم فاختفينا.

— كيف فهمت أنهم كفار يا بني؟ — فأجاب قره عمر بسرعة تحت

وطأة الألم الذي يشعر به في كتفيه:

الصنوبر بعظمة. تلك الأشجار الضخمة التي لا يستطيع أن يحيطها

رجلان بذراعيهما ولا يدري أحد أي عصافنة تلك التي عصفت بذروة

كبراهن ومع ذلك فهي مازالت أطول من كل الذرى. يتدلى من جذوعها

الضخمة فرعان كأنهما ذراعان يتهيآن للعناق.

ملأ الشيخ إسماعيل رثيته من عقب الصنوبر الذي جاء من الغابات ورمى

ببصره عبر حقول القمح الممتدة أسفل القرية فظن الحافظ يوسف أنه

يفكر في حقله فبادره قائلاً وهو يتسّم:

— المحصول سيكون طيباً هذا العام انشاء الله يا شيخخي.

— ليبارك الله يا ولدي.

— أجاب الشيخ إسماعيل ثم توجه وجهه فجأة وقد انغرست

نظراته على ذلك الشيء الذي يخترق الحقول مهزولاً ثم زالت جهامته

وانفجرت أساريه... حل محل الغضب نوع من الفضول، وهمس

قائلاً: — الله الله، لماذا هذا الضرر يا مبارك؟ فقال يوسف وقد عرف

القادم: — إنه قره عمر يا شيخخي. ابنكم.

— نعم نعم. شذب الشيخ لحينه ثم نهض

دافعاً عما أمته إلى الوراء. ورغم الخمسين عاماً التي يحملها على

كاهله كان ممشوق القوام. عرفوه شيخاً يقبلون يده، ليس في هذه

القرية فحسب بل في كل القرى المجاورة. وكان يؤم الناس ويقف

جاء الربيع يربت بيده الحانية على كل شيء بدءاً من أطراف الأقدام

حتى قمم الجبال. ولم تنتظر جبال (كوندوز) حتى تذوب الثلوج تماماً

فاهتزت الأرض فيها وربت. لا بد أن هذه الزهور البنفسجية والصفراء

والبيضاء قد انبثقت من أرضها الندية، ثم أحاطت زهور اليباتيا

والبنفسج والورد حواف الوديان والروابي والحقول والمراعي، ومن

بينها قرية "بينار" ببساتينها ومروجها الخضراء. إن أريج الربيع وشذاه

ينتشران في الوادي؛ في كل الوادي، في قرية بشينار، فيطوف شوارعها

ويدخل البيوت ثم إلى الحجرات في داخلها بل ويؤري في عيون الناس،

وفي قلوبهم، هو عبق تختلط فيه رائحة الأرض الندية بالمطر بأشجار

الصنوبر. تنام قرية بشينار في أحضان ريوة

عالية، تختفي وراءها غابات الصنوبر التي تغطي جبال (كوندوز)

برداء أخضر داكن نادر الوجود، لم تكن تلك الغابات لتمنع نفسها من

الانضمام إلى موكب الربيع أما القمة العالية التي تقع فوقها قرية بينار فقد

بقي على حافتها بعض أشجار الصنوبر التي تقدم بها العمر قليلاً

فما لبثت تجاه الحافة. ها هنا تحت هذه الأشجار توجد

العيون الخمس التي سُميت بها القرية؛ ثلاث منها متجاورة وإثنان

في الجنوب قليلاً، يتحدث أهل القرية أن يستطيع الإنسان أن يحتفظ

بمائها خمس دقائق في يده من شدة برودتها. فوق هذه العيون تقف أشجار

الإسراف فلا جناح علينا في هذه الوليمة». أخيراً نهض وهو يصلي على الرسول ﷺ، على أية حال فهذه الوليمة لم تكن من أجل الزفاف بل كانت تقام مرتين في السنة فيها يلتقي الإخوان ويتسامرون ويسألون عن أحوال بعضهم.

بعد صلاة العشاء اجتمع المدعوون في بيت الشيخ إسماعيل وتحلقوا يتسامرون ويذكرون الله فلم يدركوا كم مضى من الوقت عليهم وهم بهذه الحال ولم ينتبهوا إلا وطرقات شديدة بالباب، فذهب أحدهم ليرى من الطارق، وما إن فتح الباب حتى امتلأت الغرفة بجنود الجاندرمة (الأمن المركزي)، فأخرجوا الجميع إلى الخارج وصفوهم على الجدار وصاح الملازم الذي كان على رأس المجموعة:

- في أي عهد تعيشون. ألا تعرفون أن التكايا قد أغلقت، وأن الاحتفالات الدينية قد أصبحت ممنوعة بحكم القانون؟ ها إنكم تعارضون الزعيم الغازي، هيا سيروا أمامي.

واقتراد العسكر كل من كانوا يذكرون الله أمامهم، وبعد أسبوع عاد معظمهم إلا الشيخ إسماعيل وبعض إخوانه الذين أوقفوا لمحاكمتهم بتهمة تحريض الناس على إعادة الخلافة وإلغاء الجمهورية والتمرد ومخالفة القوانين.

لقد لاحظ الصاعدون إلى قرية بيشنار أن أشجار الصنوبر الضخمة قد جفت وبيس عودها. ولم يصدقوا عيونهم وحواروا في أمر هذه الأشجار التي عرفوها خضراء منذ تفتحت عيونهم على هذه الدنيا مما زاد من حيرتهم تلك العاصفة التي عصفت ذات ليلة بأشجار الصنوبر فاقتلعتها.

عن مجلة حكمت دندار
Islami Edebiyat

وقد انفصل عن جسده والدماء السوداء تنبثق من رقبته. فتسمر الأرمانيان الآخران مذهولين ناظرين إلى الجسد المختلج أمامهما مضرجاً في دمايته. في تلك اللحظة سمع دوى طلقة ومعها سقط أرمني آخر على الأرض منكفئاً، ثم سمعت طلقة أخرى فنبهت الأرماني الأشقر فالتفتي بسلاحه أرضاً وفر هارباً وهو يصرخ.

ثم توالى أصوات الطلقات من كل مكان في القرية ووصلت العدوى إلى الشيخ إسماعيل فالتقط بندقيته وهرول منطلقاً إلى أسفل القرية وهو يطلق النار في الهواء، أما الأرماني الآخرون فلم ينتظروا حتى يعرفوا ماذا حدث لرفقاتهم بل ولوا الأدبار حتى لا يدركهم الرصاص.

ومرت الأيام وكبرت الأعوام. هناك بهجة أخرى - غير قدوم الربيع - جعلت قرية بشبينار ترفل في ثوب من السعادة. إنه يوم زفاف قره عمر بن الشيخ إسماعيل. وكان من نصيبه ابنة العم علي. لقد خرجت بشينار على بكرة أبيها منذ الصباح الباكر. وكل أهل القرية يمدون الأسطة وينحرون الخراف وذعي الأخوان من القرى المجاورة فتحولت بشبينار إلى خلية نحل، فالكل يشترك في إكرام ضيوف الشيخ إسماعيل فهم ضيوف القرية كلها.

فرشت السجاجيد والحصائر على الأرض وبسطت فوقها الموائد، وأكل الجميع من الأرز المخلوط باللحم وقطعوا البطيخ والشمام شرائح ووزع «العيغان» في أكواب كبيرة وشرب الجميع ثم قاموا يقرأون القرآن والمدائح النبوية وينشدون التواشيح وختموا الوليمة بالدعاء. وبينما هم ينزلون شربوا الماء من البنايع الخمسة (بشبينار). أما الشيخ إسماعيل فقد انزوى في ركن بعيد يرقب المآدب من بعيد وهو يتسمسرسروراً ويتمتم من حين لآخر «مادام الأمر لم يصل إلى حد

تقدم أحدهم، وهو متوسط العمر عيوس الوجه حاد الملامح، فأشار إلى شاب أشقر من بينهم برأسه إشارة إلى الباب فتقدم هذا وضرب الباب بقبضته ضربتين. وكان الشيخ إسماعيل واقفاً متسماً داخل الحجر لا يدري ماذا يفعل فاشتدت الطرقات على الباب وصاح صاحب الوجه العيوس قائلاً:

- تركو، تركو
- ماذا هناك. قالها الشيخ إسماعيل وهو خارج. لم يجد بداً من الخروج. أيا كان ما سيحدث فلا بد من الخروج. وعندما خرج إليهم لم يمنعهم النور المشع من وجهه أن يوجهوا إليه بنادقهم.

- خبز يا تركي، نريد خبزاً. قالها وهو يشير بيده إلى حلقه ومعدته. فدخل الشيخ إسماعيل وأحضر كيساً مملوءاً بالخبز، وهو يفكر «إن هؤلاء الخنازير كانوا يعتقدون أن هذه القرى خاوية لا يوجد فيها رجال وسيرتعون فيها كما يشاءون. خرج الشيخ إسماعيل فتقدم الأرماني الآخر واحتضن صرة الخبز فقال الآخر وهو يفرك أصابعه إشارة للثمود:

- توركو، توركو نقود يا تركي، قالها ماداً ذراعه إلى الأمام.

في تلك اللحظة نظر الشيخ إسماعيل إلى الأمام فرأى طوبال رضا في البيت المقابل وقد أمسك ببندقته مستعداً لإطلاق النار. اعتقد الأرماني أن الشيخ لم يفهم فكردها قائلاً:

- نقود، نقود.
تمتم الشيخ قائلاً:

- أنت في عجلة من أمرك إذن. ثم اتجه إلى داخل المنزل. في تلك الأثناء أنزل الأرماني ماسورة بندقيته إلى أسفل ولكن عينيه لم تنفك عن الدوران في محاجرها يمينا ويساراً. وقف الشيخ إسماعيل وأطرق برهة ثم قال «الله» وفي لمح البصر التقط المنجل المعلق على الجدار فأخذ رأس الأرماني يتدحرج على الرمال

رضاً وعلى ودورسون، فليجهزوا بنادقهم ويتخذوا مواقعهم. عندما يأتون إلى وسط القرية سوف نهاجم. هيا فليخبر كل واحد أخاه. فليغلثوا كل الأبواب والنوافذ ولا يفتحوها إلا بعد أن يهدأ كل شيء.

انتشر الخبر في أنحاء القرية ذات الأثنى وعشرين منزلاً في سرعة البرق. لم يكن بالقرية شباب قادرين على حمل السلاح بسبب التعبشة العامة. أما السلاح فهو قليل جداً حتى أنه يمكن جمع أربع بنادق بالكاد لمواجهة العدو، هذا إذا انطلقت هذه البنادق.

لف القرية صمت مثل صمت المقابر. كان الشيخ إسماعيل آخر من تحرك حين دلف إلى منزله واتخذ موقعه أمام النافذة.

وقف الأرماني على مشارف القرية، وبعد حديث قصير دار بينهم انفصل ثلاثة. فدخلوا القرية وبقي اثنان في الخارج وتقدم الثلاثة متلفتين يمنة ويسرة حتى وصلوا إلى وسط القرية.

- تبا لكم قائلاً الشيخ إسماعيل وهو يعرض على نواجذه. لقد انقلب الخطة رأساً على عقب. لا بد من رسم خطة جديدة وهذا غير ممكن الآن، لا حل سوى الانتظار. - لو لم يكن أحدهم قد أخطأ. تتمم الشيخ إسماعيل: بهذه العبارة وهو ينسحب من وراء النافذة.

بعد أن فحص ثلاثتهم المنازل التي تتوسط القرية بدأوا يتقدمون تجاه بيت الشيخ إسماعيل لأنه أكبرها وكان الشيخ إسماعيل ينظر إلى القادمين من فرجة النافذة ثم يقطع الغرفة جبهة وذهاباً كحال من لا يدري ماذا يفعل.

جاءت عصاة الأرماني وعبر الثلاثة من باب الفناء الخارجي ثم وقفوا أمام باب الدار تلعب في أيديهم بنادق (الماوزر) الإنجليزية الصنع وعلى صدورهم الشرائط المدججة بالذخيرة.